عم عدوى

اتفق معى صديقى الملحن أن أزوره فى مكان فرقته لأسمع لحنه الجديد .. وفى الموعد المضروب .. اصطحبت معى أحد أصدقائى من عشاق هذا الفن .. دخلنا مبنى شاهقا .. واجتزنا الممر المؤدى الى الدرج .. أتى الى سمعينا نغمات متباينة .. لعل أعضاء الفرقة الموسيقية يستعدون للعزف .. فيدربون أصابعهم مع الأوتار لتلين مع رقتها .. مشينا بالممر العلوى والأنغام قد انتشرت فى جو المكان .. شعرت بالشوق .. وكلما اقتربنا .. كلما زادت ليفتى .. رآنا صديقى فهرول الينا مرحبا .. وكان قد مر أمام ضابط الايقاع .. كان يجلس ملاصقا لباب قاعة العزف .. فهب واقفا فى انكسار .. أجلسنا صديقى .. وكانت جلستنا بالقرب من ضابط الايقاع .. ورأيناه يقصد رجلا تطايرت خصلات شعره يجلس فى كبرياء أمام قانون .. يلوح بيده فى الفضاء .. وصوته يرتفع بين آن وآخر .. عرفت على الفور أنه « المايسترو » رئيس الفرقة .. جعلت أنقل بصرى بين الآلات الموسيقية بأشكالها

وأنواعها ·· والعازفون جالسون فى تأهب ·· وصديقنا يمشى هنا وهناك كالنحلة ·· يهمس فى أذن هذا ·· وينصت الى ذاك ·· وأخيرا وقف بالقـــرب من القائد الذى بان فى وجهه الجد ·· وباشارة من يده عم السكون ·· وما لبث أن أعلن بدء العزف ·· ثم التفت الى ضابط الايقاع قائلا :

ـ جاهز يا عدوى ··

أجاب عم عدوى بصوت خفيض واهتمام :

ـ جاهز يا فندم ·

ـ طبلة بدوية ·· ابتدى ·· واحد ·· اتنين ·

وانطلقت أصابع عم عدوى تدق الدف فى اتقان ·· انحنيت بقدى ومشاعرى أرقب أصابعه التى تتقافز على الدف ·· تطلعت الى وجهه ·· وكانت دهشتى حين رأيته بعيدا عن المكان ·· وانبرت الآلات الأخرى تعلن عن وجودها وترسل نغمات متسقة ·· واستمر العزف فترة بين اشـــارات القائد ·· بيده ·· ورأسه ·· وكل أعضائه ·· وانتهت « البروفة » الأولى لتبدأ فترة الراحة ·

قام أعضاء الفرقة يتجولون داخل الحجرة وخارجها ·· كما قام عم عدوى متكاسلا ·· سار فى تخاذل خطوات قليلة ·· ثم جلس على مقعد فى مواجهتى ·· تفرست فى وجهه ·· رأيت الزمن وقد خط خطوطه القاسية ·· وحفر حفرا غائرة على صفحتى وجهه ·· وتشابكت ثنايا كثيرة على جبهته وحول عينيه الشاردتين ·· وأسفل ذقنه ارتخت العضلات فبانت أوردته الملتوية المنتفخة ·· وبرز أنفه كبيرا ·· وكل هذا البؤس محمولا على عنق واهن وجسد هزيل ·· كما برزت ضلوعه من فتحة قميصه المرقعة ·· ويرتدى « بنطلونا » امتد قليـــلا تحت ركبتيه فأظهر فردتى جوربه التى

اختلفت كل واحدة عن قرينتها لونا وحجما ·· وقد ارتخت احداهما عن ساق نحيل ·· عليه شعيرات ابيض معظمها ·· ويلف قدميه حذاء ضخم تراكمت عليه الأتربة بحيث يتعذر التعرف على لونه الحقيقى ! ·

صفق « المايسترو » ايذانا ببدء « البروفة » الثانية ·· أخذ كل مكانه ·· تناقلت نظرات « المايسترو » بين العازفين واستقرت على مقعد عم عدوى الذى وجده شاغرا ·· فصاح مناديا اياه ·· لم ينتبه عم عدوى للنداء الذى تكرر ·· فقد كان شارد الذهن ·· اختلط صياح الرئيس بسبابه ·· والرجل لا يدرى من أمره شيئا ·· قمت من فورى انقـــاذا للموقف ·· ربت على كتفه فانتفض مذعورا ·· وانتصب واقفا ·· يتلفت فى كل ناحية ·· أشرت الى مكانه ·· فأسرع اليه ·· ولم يدعه الرئيس الذى سأله مزمجرا :

ـ أين كنت يا سكران ؟

أجاب عم عدوى فى فزع :

ـ أبدا يا سعادة البك ·· كنت ·· كنت ··

ـ اسمع يا رجل ·· هذه المرة الأخيرة ·· وهذا انذار أخير ·· فاهم ·· ؟

هـز عم عـدوى رأسه فى اذعان ·· وقبل أن يشرد ارتفع الصوت الذى يزلزل كيانه ·· السوط الذى يلهب أذنيه ويلسـع كرامتـه ·· وطفق يدق على دفه ·· الدقات عميقـة رهيبة ·· كالشـــعاع الذى ترســـله عيناه ·· وانتهت البروفة الثانية بسلام ··

لم يدع عم عدوى مكانه تحاشيا لاهانة أخرى ·· وجعل يتأمل زملاءه بوجوههم التى تشع منها الراحة والسعادة ·· يتألقون

فى ملابسهم الفاخرة ·· تبرق فى العيـون خواتمهم وسـاعاتهم الذهبية ·· تفوح منهم رائحة عطرية ·· وتأمل عم عدوى نفسه باحساسه ·· مقارنا بوجهه المغضن البائس وأسماله البالية التى تستر جسـده فى خجل ·· تفوح منه رائحـه العرق ·· كريهـه نفاذة ·· يديه الخاويتين النحيلتين ·· وهيكله الضـامر ·· كم تأثرت حين رأيته يدمع ·· واشتد تأثرى حين رأيته يخفى وجهه تفاديا لنظراتى ··

جاء الى سمعى هرج وجلبة صادرين من الردهة الخارجية·· قمت لاستطلع الخبر ·· شاهدت بين العازفين رجلا طويل القامة نحيفها ·· له شعر طويل فضى نمقته يداه الرقيقتان ووجه أحمر دقيق الملامح ·· خاليا من التجاعيد ·· تزينه ابتسامة واثقة ·· ·· وفى يده حقيبة فاخرة ·· وبصحبته فتاة رقيقة ·· أنيقة ·· ترتدى رداء براقا ·· ويلمع فى صدرها عقد كبير ·· تتضافر فى رشاقة مزهوة بنفسها وبمن فى رفقته ·· البشر واضح فى سماتها ·· حانت منى التفاتة الى عم عدوى فرأيته وقد علته صفرة الموت ·· ينظر فى جزع الى لا شىء كغريب ضل الطريق ·· أو كجرذ صغير يفتش عن شق ينزوى بداخله حتى لا تسحقه الأقدام ·· وعدت أسترق النظر الى الفتـاة الرشيقة ·· شتان بينهما ·· كالسماء والأرض ··

جرى الجميع ناحية الضيفين ·· وقفت بينهم وبين عم عدوى الذى أفاق أخيرا من سكرته ·· فوقف مطأطئا منكمشا على نفسه ·· لا يتقدم خطوة واحدة حتى لا تشتم رائحته ·· يختلس نظرات خاطفة ·· خائفة ·· اقترب الجمع منه فامتقع لونه ·· وأصيبت أطرافه وجسده بالرعشة ·· سألت صديقنا عن الرجل والفتاة ·· **فقال فى تفاخر :**

ـ انه المخـرج ·· وانهـا المطربة التى ستؤدى لحنه ··

وسار الجمع الى قاعة العزف ·· واتخذ العازفون أماكنهم ·· وانسل عـم عدوى وجلس على مقعده العتيق ·· وأمسـك بدفه استعدادا ·· وجسـده ما زال ينتفض ·· وصدره يعلو ويهبط ونظراته قلقة ·· غير مستقرة ··

تبادل صديقنا و « المايسترو » نظرة ·· بعدها ثبت الأخير نفسـه فى مقعـده ·· ثم نظـر ناحية عـم عـدوى ·· **وتلاحقت الأنظار تباعا ·· ورفع عقيرته :**

ـ هيا يا عدوى ·· واحذر القفلة الأخيرة ·· واحد ·· اثنين ··

التفت المخرج الى ضابط الايقاع الذى أسرع نبضه ·· ولكن الحمد لله نظر الى ناحية أخرى ·· وعاد ينصت اليه حين سمع الدف يملأ المكان رهبة ·· كان ضابط الايقاع يعبر عن نفسه ·· فالدف متنفسه الوحيد الذى يترجم أحاسيسه ·· والمخرج ما زال موجها حواسـه الى دقات الدف المعبرة ·· وحين انسابت أنغـام الآلات الأخرى ·· أشار المخرج الى العازفين بالتوقف ··

ثم وجه حديثه الى عم عدوى قائلا :

ـ ثانية يا عم عدوى ··

تطلع عم عدوى الى المخـرج فى بلاهة ·· وقد عقد الخوف دهاءه ·· وتراءى فى عينيه سؤال حائر :

ـ هـل أخطأت ؟ !

بأدب جم ·· كرر المخرج طلبه ·· علت ضربات الدف أقوى وأعمق تأثيرا ·· بينما تسربت الدهشة الى وجوه الحاضرين ··

وابتسامة تضيء وجه المخرج ·· وحين انتهى عم عدوى ·· اتسعت ابتسامة المخرج ·· أيضا ابتسم عم عدوى حين لمح البشر على ملامح المخرج ·· وشعر بشيء غريب ·· لذيذ يقتحم قلبه اليائس ·

مرت ساعة وأخرى وانتهت جميع البروفات ·· وضع كل آلته فى حقيبته ·· وحذا حذوهم ضابط الايقاع ·· بينما عادت أساريره الى سيرتها الأولى ·· وهم أن يودع المكان ·· ولكنه سمع المخرج يناديه ·· كاد أن يفتح حقيبته ويعود الى مكانه ·· لكنه سمع المخرج يستدعيه ·· تنقلت عيناء بين الحاضرين ·· وكأنما يقول خذونى ·· وتوقف أمام المخرج ··

انتبه الجميع فى صمت ·· نظرات الاستغاثة على عينى عم عدوى يوزعها على الحاضرين ·· **وأخيرا استقرت عيناه على المخرج الذى قال فى حرارة وصدق :**

ـ عظيم يا عم عدوى ·· أنت فنان قدير ··

تمتم عم عدوى فى سره :

ـ فنان قدير !

··· حين أضاف المخرج ··

ـ ولذا قررت التعاقد معك لتضع الموسيقى التصويرية لفيلمى الجديد ·· وستكون بالدف فقط ··

شهق كل أفراد الفرقة متبادلين نظرات الاستنكار ·· موجهين نظرات الغيظ الى المخرج ·· وعم عدوى فى حالة انعدام الوزن ·· وعندئذ فتح المخرج حقيبته ·· وأخرج ورقة وقلما ·· وكتب عدة كلمات ·· ثم قدم الورقة الى عم عدوى قائلا :

ـ وهذا العقد ·· تفضل ··

انمحت كل التعبيرات من الوجوه ·· وحل محلها الحسد ·· أمسك عم عدوى الورقة وجعل يقلبها غير مصدق ·· حائرا ·· فهل يأخذها ·· أم يسلمها لرئيس الفرقة ·· وكانت الدهشة المذهله ·· حين أخرج المخـــرج من حافظته عشر ورقات من فئة العشرين جنيها ·· وقدمها بينما تفوه :

ـ وهذا المقدم ·· وغدا باذن الله سأمر عليك فى مثل هذا الوقت لنبدأ العمل ··

اخذ عم عدوى الورقات العشر بعد تردد شديد ·· لم ينبس حرفا ·· وقد انزلقت قطرات العرق على بشرته لتتقاطر على صدره ·· وتذكر كلمات المخرج اليه ·· أضاءت وجهه ابتسامة ·· جعل يتلفت حوله·· ضحك ·· استمر يضحك ·· اشتدت ضحكاته·· أحسست كأنها تملأ الدنيا ·· نظر الى الأوراق فى يده ·· ارتفعت قهقهاته وكأنما يعبر عن بؤساء الأرض أجمعين ·· هرول قليـــلا ثم هتف فى ذهول :

ـ ها هو المبلغ ·· هو هو الأمل ·· ستجرى لك العملية يا ابنتى الحبيبة ·· سيعود اليك بصرك ·· وأرى عينيك الجميلتين ·· وأخذ عم عدوى يعدو ·· بينما يردد :

ـ أنا فنان قدير ·· أنا فنان يا عالم ·· أنا ··

الحاضرون تلاقت عيونهم ·· على وجوههم حل الهدوء ·· ولم تمض لحظات ليستأذن المخرج مودعا ·· تحوطه نظرات الاعجاب والتقدير ·· وقد رأيت المخرج ·· كأنما تستطيل عنقه ·· وكأنما رأسه يرتفع ·· ويعلو ·· ويسمو ·· حتى أضحى عملاقا ··

ولم أعد رؤية رأسه فقد اندست فى السحاب ·· وجدتنى أنطلق وأعدو بكل قوتى ·· ومن خلفى صديقى يناديني ·· كأنما يناديني من أعماق بئر ·· وبعد قليل ذابت نداءاته ··

خلف الجدران ·· بعيدا عن الأضواء اناس موهوبون ·· فى يأس يعملون ·· فى فنهم يعانون ·· لفقرهم يتألمون ·· ولا يجدون لهم مكانا بين الزحام ·